من المعمّرين

والتر دلاميير

تعليم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد

أنقبل ما يُذكر في بعض الكتب العربية عن المعمَّرين على انه صحيح ؟ أنصدق ما يرويه ابو حاتم السجستاني مثلاً في « كتاب المعمَّرين » من ان عدي بن حاتم عاش مائة وثمانين سنة ، وان عبيد ابن شَرْيَة الجرهمي عاش ثلاثمائة سنة ، وان عبيد بن الأبرص عاش مائتي سنة وعشرين ؟

إن صح هذا فهل كانت السنة العربية – قبل الاسلام – اقصر من السنة الهجرية ؟ أكانت تعادل نصفها ام ثلثها ام ربعها ؟ وإن لم تكن كذلك فهل تغيرت ظروف العيش الآن وضعفت مناعة الحياة البشرية ومقاومتها المؤثرات الخارجية المادية والاجتماعية الى درجة جعلت عمر الانسان يقصر هذا القِصَر الواضح ؟ ألم يتقدم المجتمع البشري نحو الصحة والراحة ؟ ولماذا لا نجد اليوم – لا في جزيرة العرب ولا في خارجها – من يعمَّر هذه السنين الطويلة كمن ذكرهم السجستاني ؟

الرأي عندي ان في روايات العرب عن المعمرين ، وطول حيواتهم ، مبالغة واضحة جديرة بالبحث والتحقيق .

نعم نشاهد الآن في ميادين الأدب والعلم والفنون ، في العالم اجمع ، معمرين ولكنهم لا يصلون غالباً الى نهاية المائة من السنين او يقاربونها . وبالرغم من تقدمهم في الشيخوخة لا يزالون ينتجون في نشاط وجدّ ، ومن مات منهم استمر انتاجه الى آخر ايامه . من هؤلاء الكاتب الروائي النرويجي إبسن (١٨٢٨ – ١٩٠٦) والروائي القصصي الفرنسي اندريه جيد (١٨٦٩ – ١٩٥١) والكاتب المسرحي الايرلندي برنارد شو (١٨٥٦ – ١٩٥١) والفيلسوف الانكليزي برتراند رسل ، وما زال متمتعاً بصحته الجسمية والعقلية ، وقد بدأ بعد الثمانين كتابة الاقصوصة بنجاح ، ووالتر دِ لا مير [1] Walter de la Mare الشاعر والقصاص الانكليزي الذى سنتحدث عنه في هذا المقال . وقد بلغت سنه الثمانين هذا العام ، ولم تُحْوِج سمعه الى ترجمان .

وللتعمير مزاياه ومثالبه . فمن مزاياه ان المعمر إذا ظل صحيح الجسم والعقل كان انتاجه ناضجاً قوياً فيه خبرة السنين ، واتزان الفكرة . ومن مثالبه التحجر والتمسك بطابع القديم والعزوف عن قوالب الانتاج الجديدة واساليبه .

ولكن « والتر دلاماير » من الفنانين القلائل الذين احتفظوا بشباب الفكرة والروح والانتاج ، وتمتعوا بمزايا الاتزان والنضج في الانتاج . وهو الحبيب الى قرائه اليوم كما كان حبيباً الى قرائه منذ نصف قرن .

ولهذا الأديب الانكليزي قراء يتراوحون في اعمارهم بين الثانية عشرة وأقصى العمر ، فهو شاعر الصبيان والشيوخ ، وهو قاص يتمتع باقاصيصه وروايات الصغار والكبار ، وتلك مزية قل ان تتوافر لكثير أو قليل من الكتاب . ولو اتجهنا نحو الادباء العرب لوجدنا من بينهم من لا يتجاوز عدّهم اصابع اليد ممن يمتع ادبهم الصغار والكبار ، وممن يكتبون للصغار والكبار كذلك .

برع « دلامير » في قرض الشعر السهل الفلسفي ، السهل على الصغار في اسلوبه ولغته ، الفلسفي للكبار في تأملاته ومعانيه السامية . يتوافر هذان العنصران في النموذج الآتي من مقطوعاته :

على باب داريَ الصغير ،
سمعتُ طرق طارق .
نعم طَرَقه طارق ،
بكل تأكيد ، بكل تأكيد .
أنصتُّ ، وفتحتُ الباب ،
ونظرت يميناً وشمالاً .
لا حراكَ ، لا حراك ،

(١) ولد عام ١٨٧٣

في ذلك الليل البهيم الساكن .
الخنفساءُ فقط ،
تربّتُ على الحائط ؛
ومن الغابة فقط ،
صوت البوم ينبعث ؛
والصرصر فقط يصفّر ،
وقطرات الندى المتساقط .
ولهذا ، لست أدري
ابداً ، ابداً ،
من الطارق !

والشاعر على قدرته وبراعته في إمتاع الصغار يتخير من الألفاظ اكثرها تعبيراً واقواها دلالة ، فانتاجه الشعري كالقطعة من البلور — لا من الزجاج — في صفائها ومتانتها ورصانتها . وشعره للصغار خاصة مليء بالمعاني المناسبة لأعمارهم العقلية وتجاربهم ، مليء بالأحاسيس ، غني بموسيقى الايقاع يبتكرها هو ابتكاراً ، غني احياناً بالمعاني المرحة والفكاهات المطربة . والمقطوعة الآتية نموذج لبعض شعر الأطفال ، ينقصها ما في الأصل الانكليزي من موسيقى الايقاع وجرس العبارة :

ما اعظم الأشياء الصغيرة
في عين الذبابة .
بُرْعمُ الوردة كالقبة الناتئة ،
وشوكتها كالحربة المدببة .
وقطرة الندى كقطعة البلور .
والشعرة الصفراء كحبل من ذهب .
وذرة الخردل الصهباء
كجمرة الفحم المحترقة .
والرغيف كالتل العالي
والزنبور كالضبع العاتي
وقطع الملح الأبيض
كصغار الخراف في عين الراعي .

انها مقطوعة شعرية للصغار ، ولكن بها معاني حسية يدركونها ، ومعاني اخرى فلسفية يستخلصها الكبار . وليت شعري لِمَ لانجد من بين شعراء العرب المعاصرين هذا النوع من الشعراء ؟

واقاصيص (دِ لا مير) اغلبها للصغار ايضاً وهي ضرب يقع بين الحقيقة والخرافة ، لا هو بالخرافة الخالصة كأقاصيص (جِرِم) الالمانية و (هانزاندرسن) الدينماركية ، ولا هو بالواقع الجاف ، الوصفي ، الخالي من سحر الجاذبية والابداع الخيالي . إنه مزيج من الحقيقة والخرافة ، ولعلنا نعود الى ترجمة بعض هذه الاقاصيص في مناسبة اخرى .

والمترجم له — على شيخوخته — لا يزال في صبا تفكيره ، ولا يزال يستمد من تجارب شبابه وطفولته ، ومرح الحياة التي عاشها في النصف الاول من عمره ، ما ينسج منه لقرائه ادباً مرحاً طروباً شاباً ، ومن عمق تجاربه وفلسفته معاني خالدة فيها سر خفي ، وفيها مغاز حزينة ، وفيها إشارات لعالم ماوراء الطبيعة .

وهو في هذا يقول : « إن الشاعر يستمد خياله من طفولته ، وتعقله من رجولته ، وفلسفته من كهولته وشيخوخته » :

والمترجم له رقيق الحواشي ، جم الأدب ، جذاب الحديث ، حي المناقشة ، واسع المعرفة بالماديات والمعنويات في الآداب والفنون والعلوم ، وقوانين الطبيعة في العالم حوله وفي الانسان نفسه . هكذا يصفه من عرفوه .

جامعة مانشستر **عبدالعزيز عبدالمجيد**

صدرت

قصة

تريستان وايزلت

تعريب : يوسف غصوب

الكتاب الأول

من

« المنشورات العربية »

تحفة رائعة في الإخراج الفني والطباعة الحديثة

تطلب من

المكتبة الشرقية (ساحة البحمة)

ومن جميع المكتبات

وسيليها منشورات عديدة

من أروع ما أخرجه الفكر الغربي